تاريخ افريقيا العام
دراسات
ووثائق
١١

ليبيا القديمة



تاريخ افريقيا العام : دراسات ووثائق

ليبيا القديمة

تقرير ودراسات الندوة التي نظمتها
اليونسكو في باريس
في الفترة من ١٦ الى ١٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٤

اليونسكو

أصدرته في عام ١٩٨٨ منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة
٧ ساحة فونتنوا، ٧٥٧٠٠ باريس

طُبع في المطبعة الكاثوليكية ش م ل، عاريا – لبنان

الترقيم الدولي للكتاب
ISBN 92-3-602376-2

عادات الدفن عند الجارامنت وعلاقتها بعادات الدفن عند شعوب أخرى في شمالي إفريقيا

فرج الراشدي

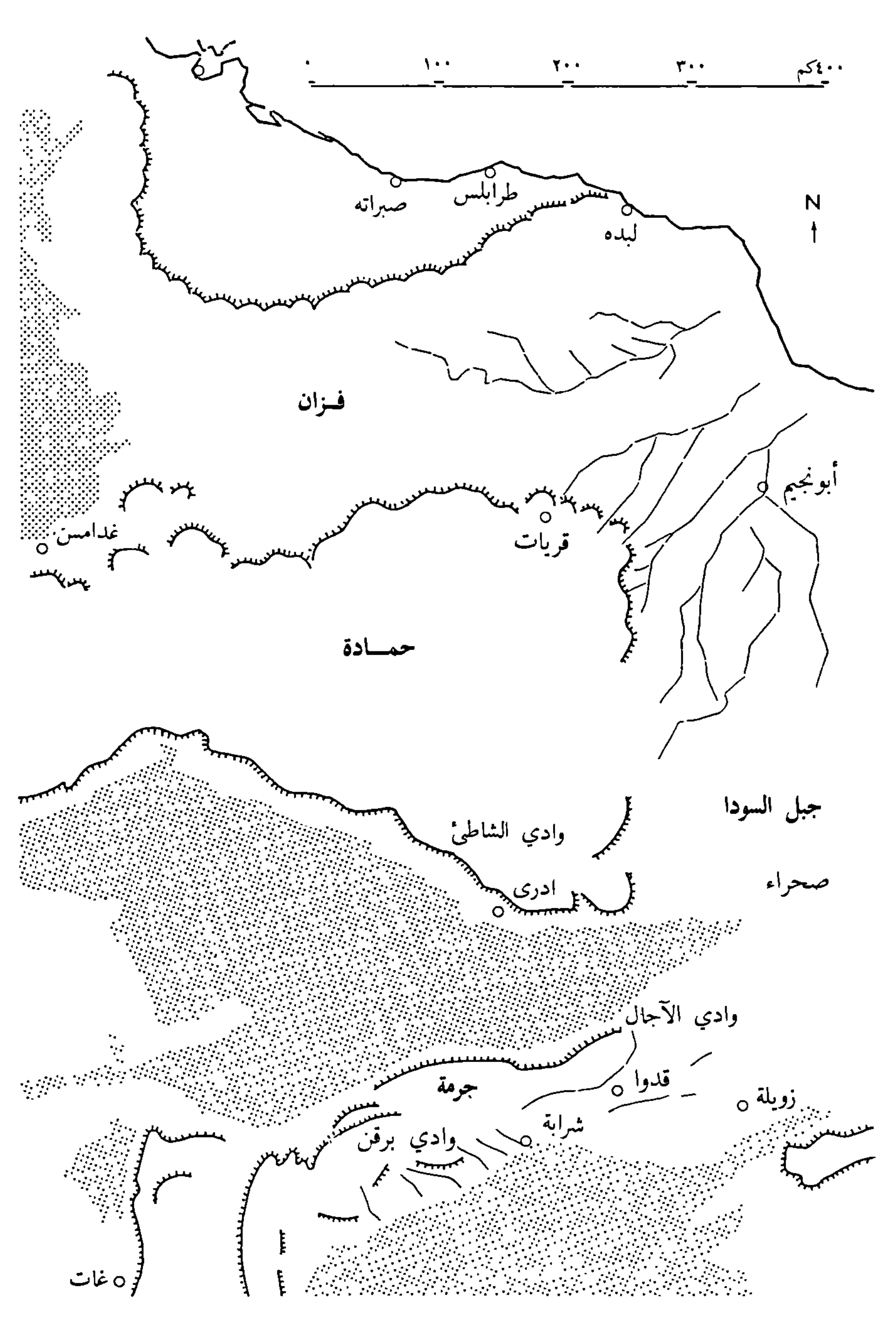
الجارامنت هم السكان القدامى لفزان، وهي إحدى المناطق الجنوبية في ليبيا الحديثة (انظر الخريطتين ١ و ٢). وقد شهد بوجودهم الكتّاب الكلاسيكيون، بدءًا من هيرودوت وحتى أواخر العهد الروماني. وقد أسفرت الأعمال التي نهضت بها مؤخرًا مصلحة الآثار الليبية (أيوب، ١٩٦١، ١٩٦٧) والبعثة البريطانية برئاسة السيد س. م. دانييلز C.M. Daniels، عن نشر قدر كبير من المواد الأثرية الجديدة يُضاف إلى ما سبق أن نشرته البعثة الايطالية لعام ١٩٣٣ (كابوتو وآخرون Caputo et al.، ١٩٥١)، والبعثة الفرنسية لعام ١٩٤٩ (بوفيليه Pauphilet، ١٩٥٣).

وتُعتبر عادات الدفن جانبًا من الجوانب الهامة لثقافة الجارامنت التي تتناولها هذه الدراسة بالبحث. وسوف نتناول عادات الدفن عند الجارامنت في إطار البربر وغيرهم من أقوام منطقة شمالي افريقيا في مجموعها.

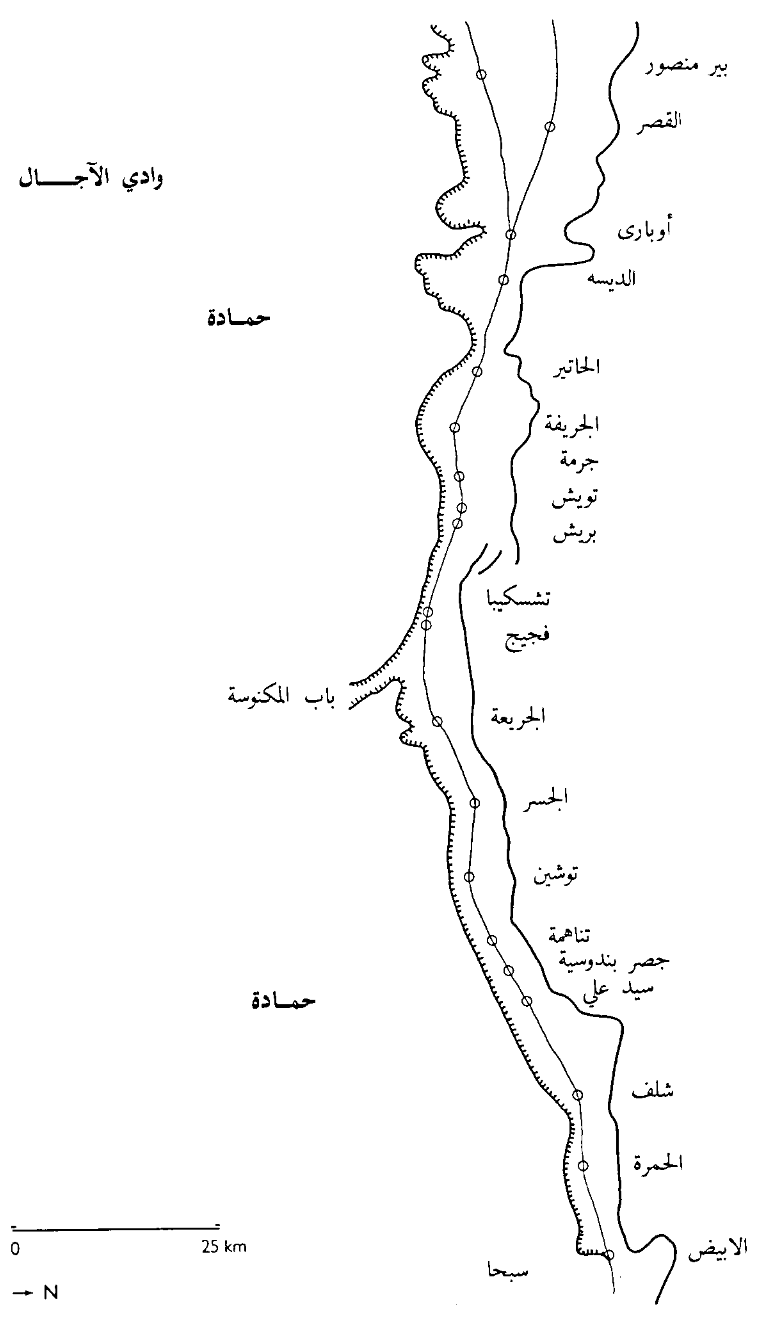
وتتّخذ أقدم المدافن الموجودة في وادي الآجال نفس الشكل الذي كان شائعًا بوجه عام لدى البربر في شمال غربي افريقيا، أي الشاهد الحجري البسيط (الشكل ٣). وهي متناثرة بالآلاف في منحدرات جرف حمادة، ويقوم كل منها مستقلاً بذاته ومنفصلاً عن غيره من الشواهد. ويتّضح لدى تفقّد هذه الشواهد، أنها أمثلة نمطية لأبسط طراز من عمائر الدفن على امتداد منطقة البربر في شمالي افريقيا.

الشواهد الأسطوانية أو الشوشيت

إلاّ أن الشواهد الأسطوانية المسماة «شوشيت» *chouchets*، هي أكثر أشكال المقابر القديمة تطوّرًا. وهي عبارة عن قطع أسطوانية من الأحجار العادية ذات سطح مستوٍ. ويوجد بعض هذه الشواهد في مواقع فجيج وفي منطقة قصر الوطواط ومواقع أخرى. ويوحي كثير من الشواهد في وادي الآجال، ومنها الشواهد الموجودة في زنشيكرا، بأنها بُنيت أصلاً على هيئة قبور مدرّجة (الشكلان ٤ و ٥)، إلاّ أن أكثر القبور الأسطوانية استرعاءً للإنتباه هي القبور التي ترجع إلى القرن الثالث الميلادي،



الشكل ١ : جرمة : حصون الحدود ومدن الساحل



الشكل ٢ : وادي الآجال موطن الجارامنت



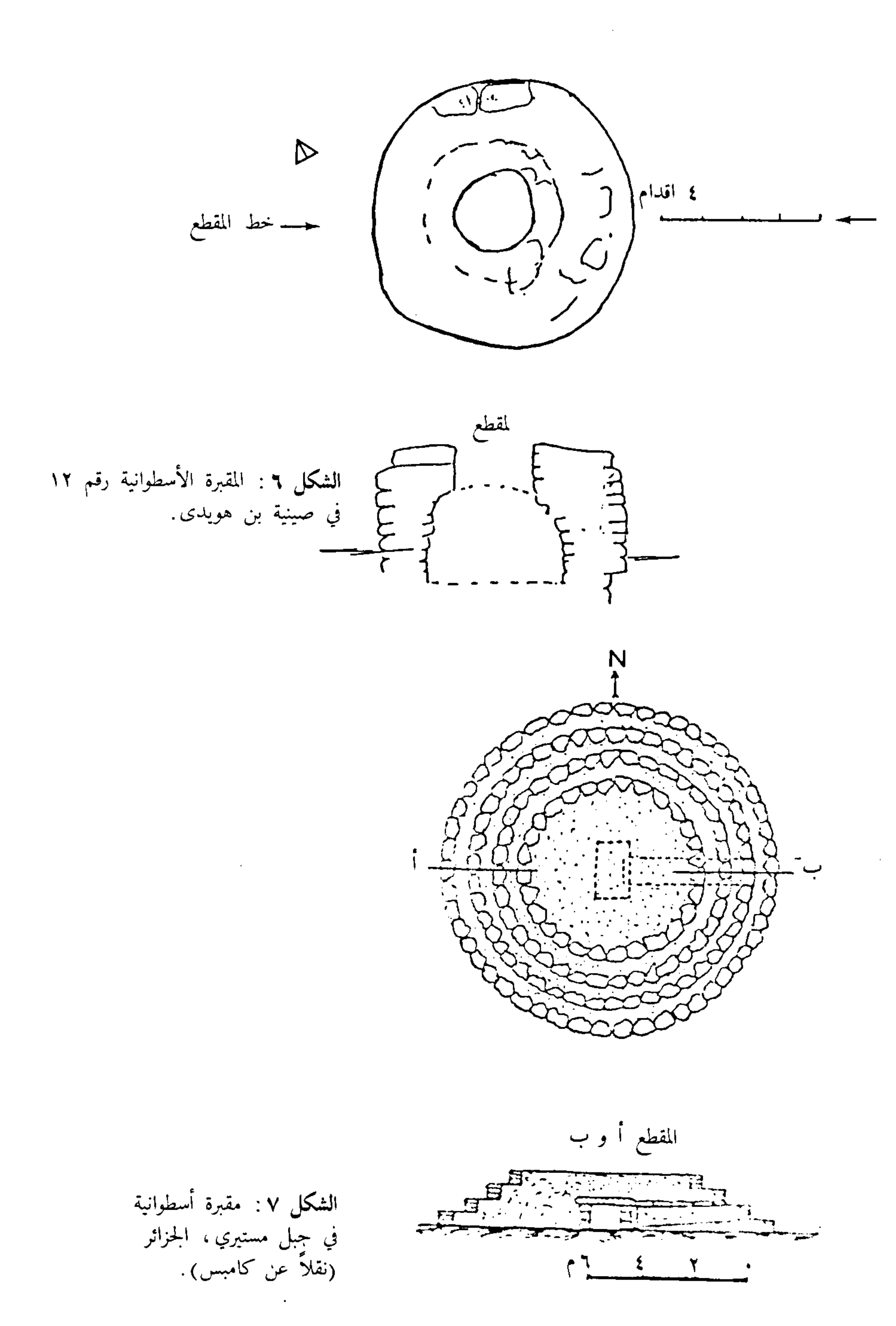
الشكل ٣ : نموذج للشاهد السيط في وادي الآجال.

الشكل ٤ : مقبرة أسطوانية مدرجة في زنشيكرا.





الشكل ٥ : تمثيل استعادي للمقبرة الاسطوانية المدرجة في وادي الآجال (نقلاً عن كامس).

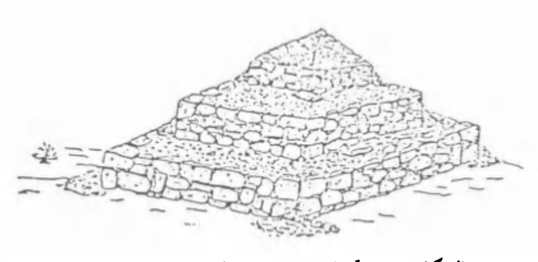


الشكل ٦ : المقبرة الأسطوانية رقم ١٢ في صينية بن هويدى.

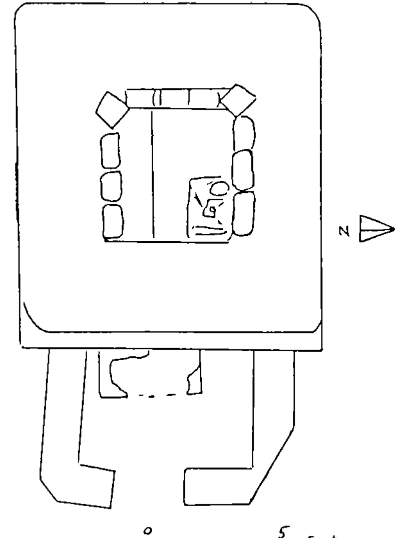
الشكل ٧ : مقبرة أسطوانية في جبل مستيري ، الجزائر (نقلاً عن كامبس).



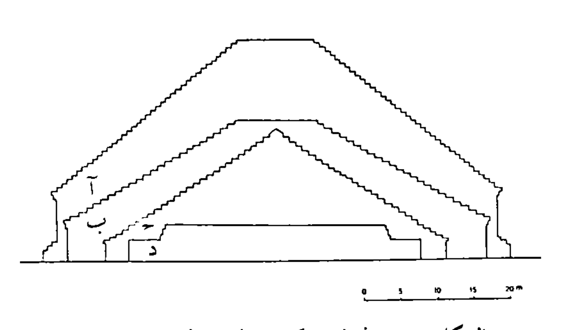
الشكل ٨ : المقبرة التاسعة في الشريح
(نقلاً عن كابوتو).

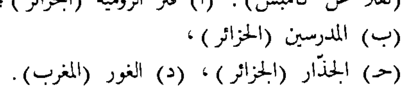


الشكل ٩ : تمثيل استيعادي للمقبرة المربعة المدرجة في وادي الآجال
(نقلاً عن كامبس).



الشكل ١٠ : مقبرة في صينية بن هويدى
(نقلاً عن دانييلز)





الشكل ١١ : نموذج تركيبي لمقابر البربر
(نقلاً عن كامبس) : (أ) قبر الرومية (الجزائر) ؛
(ب) المدرسين (الجزائر) ،
(حـ) الجذّار (الجزائر) ، (د) الغور (المغرب).

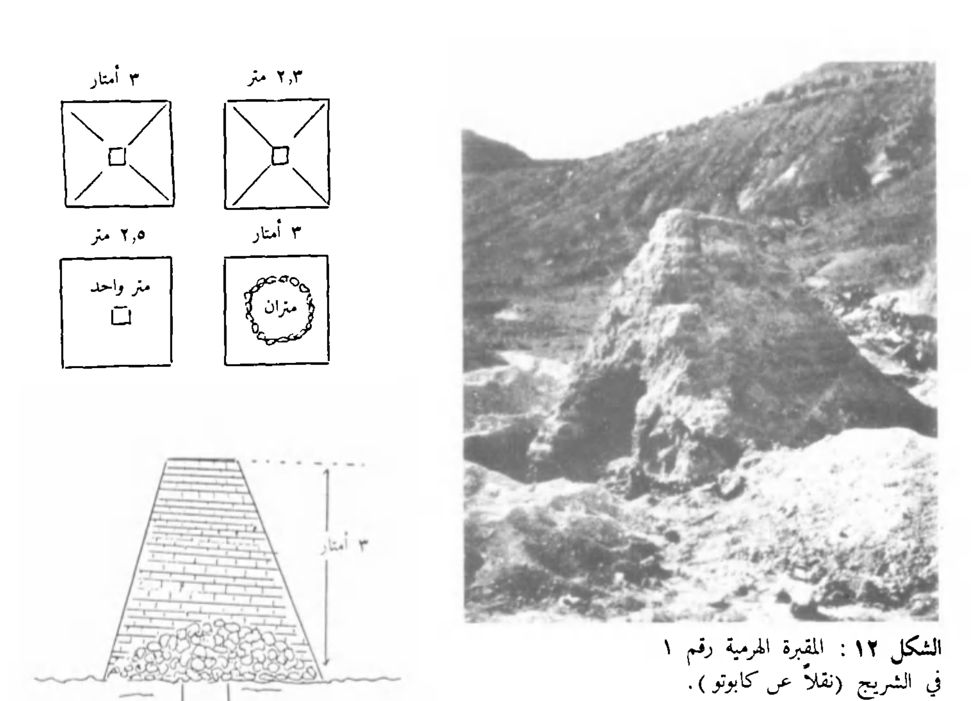
والموجودة في جبّانة صينية بن هويدي (الشكل ٦). وهذه القبور بكاملها مبنية بقوالب اللبن المصفوفة بمهارة، وينم التنوّع الواضح في أسلوب البناء عن ملكة الإبداع عند الحرفيين الجارامنت.

وتُعتبر المقبرة الأسطوانية، أو الشوشيت، في واقع الأمر، طرازًا افريقيًا شماليًا أصيلاً. ويبدو أن هذا الطراز كان مألوفًا لدى السكان القدامى لمعظم أرجاء هذه المنطقة. ويضمّ هؤلاء السكان المجموعة جـ وسكان جزيرة سيل في الشرق، وبربر المغرب الكبير والصحراء الواقعة جنوب المغرب، في الغرب (الشكل ٧). ولا شكّ أن المدرسين Medracen و «قبر الرومية» في الجزائر، يمثّلان هذا الطراز في أوج تطوّره، ويعتبران، في حقيقة الأمر، أشكالاً مكبرة متقنة للقبر الأسطواني البسيط. ويُعدّ النمط الموجود في وادي الآجال صورة لنفس التقاليد البربرية. وإذا كنا نسلّم بأن القبر المدرَّج هو صورة متطوّرة من القبر الأسطواني، فلا بدّ لنا أن نطبق ذلك على قبور الجارامنت. والواقع أن الشاهد ذا الدرجات الأربع في زنشيكرا يُعدّ نموذجًا طيبًا لهذا التطوّر.

الشاهد الرباعي الأضلاع أو بازينا

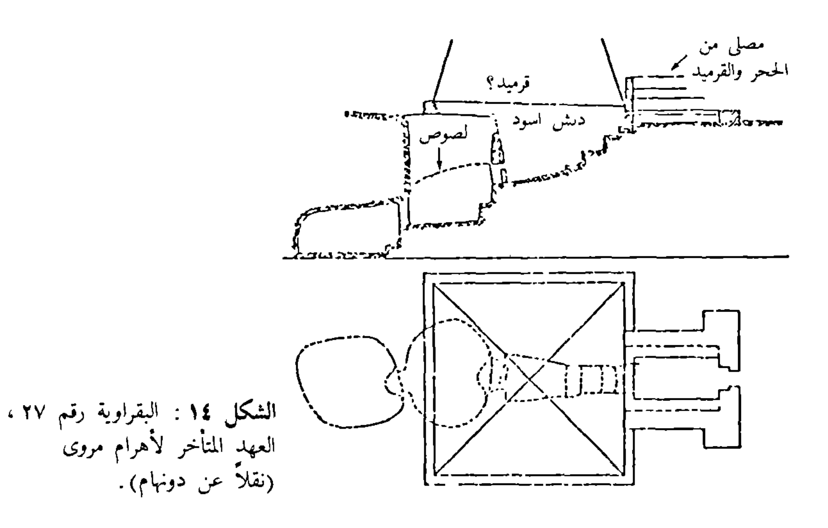
ينبغي أن يدرج الشاهد المربع والرباعي الأضلاع أيضًا ضمن الأشكال المتطوّرة لقبور البربر. ويتّسم العديد من هذه القبور، شأنه شأن الشوشيت، بأن له درجات، وتلك السمة هي ما يجعله يسمى بالبازينا *(bazina)*. ويزخر وادي الآجال بهذا الطراز من المدافن: والقبور الموجودة من هذا النمط في «الجبانة الصرحية» «Nécropole Monumentale»، أو الجبانة الملكية (على بعد خمسة كيلومترات جنوبي جرمة القديمة) تتّخذ شكلاً مربّعًا أو مستطيلاً وتعلوها درجتان أو ثلاث درجات (الشكلان ٨ و٩). وكانت تُطلى من الخارج بطبقة من الجبس. وثمة نموذج خاص في صينية بن هويدي (على بعد ثلاثة كيلومترات شرق جرمة) تتسم عمارته بقدر من التطوّر (الشكل ١٠). وكان هذا النموذج مبنيًا بقوالب اللبن، شأنه شأن جميع المدافن في صينية بن هويدي، ويظهر جزء منه فقط فوق مستوى الأرض. وهو يبدو في الوقت الحالي على هيئة بناء رباعي الأضلاع. ويوجد على الجانب الشرقي من الجزء الظاهر من المدفن نتوء يتمثّل في جدارين واطئين يتضمّنان بقايا لوحة حجرية ومائدة لتقديم القرابين.

وتوجد المقابر المربّعة في أجزاء أخرى من شمالي افريقيا (الشكل ١١)، إذ توجد في موريتانيا مقابر شبيهة بالمقابر المربّعة في صينية بن هويدي. وثمة فارق يتمثّل في أن بعض عمائر الدفن الموريتانية أكبر حجمًا نوعًا ما من نظيراتها في صينية بن هويدي. أما المدافن الجزائرية المعروفة باسم «الجِدّار» فهي تُعدّ بلا منازع أكثر المقابر الرباعية الأضلاع تطوّرًا في شمالي افريقيا. فهذه المقابر تفوق الأمثلة سالفة الذكر من حيث إتقانها، كما أنها أكبر منها نسبيًا. ولمّا كانت هذه المدافن أحدث



الشكل ١٢ : المقبرة الهرمية رقم ١ في الشريج (نقلاً عن كابوتو).

الشكل ١٣ : جزء من مقبرة هرمية (نقلاً عن دانييلز).



الشكل ١٤ : البقراوية رقم ٢٧، العهد المتأخر لأهرام مروى (نقلاً عن دونهام).

عهدًا (القرن الثالث أو الرابع الميلادي) فقد يشجّعنا ذلك على أن نفترض أن المدافن المدرّجة في وادي الآجال ربّما كانت نموذجًا مُصغرًا بسيطًا وأصليًا للمدافن الجزائرية المتطوّرة المعروفة باسم « الجِدّار » .

المدافن الهرمية

توجد في وادي الآجال ثلاث جبّانات معروفة بها مدافن هرمية الشكل. وتقع إحدى هذه الجبّانات أسفل الجرف عند الشريج (الشكل ١٢) ، وقد أُكتُشِفت جبّانتان أخريان في عام ١٩٥٩ بالقرب من منطقة الحاتيه بوسط الوادي. كما لوحظ وجود نماذج منفردة في نقاط متناثرة في وسط الوادي (س. م. دانييلز ، ١٩٧٠ ، ص ٣٥).

وكانت الأهرام تُقام عادةً في مواجهة الشرق ، ومن ثم يكون الدخول إليها من هذا الجانب. وكان موضع المدفن يتمثّل في خندق مربع يقع تحت الأرض ويُغطّى بكومة من الأحجار (الشكل ١٣).

وموضوع منشأ هذا الطراز من المدافن موضوع شائق. فنحن نصادف هنا ، في وادي الآجال ، شكلاً من المدافن يبدو أنه لا يوجد أي وجه للشبه بينه وبين أنواع أخرى من المدافن ، كما لا يسهل العثور على نظير له في أي مكان آخر في شمالي افريقيا. ويرجّح ، لهذا السبب ، أن يكون مصدر التأثير هنا هو الشرق والجنوب الشرقي ، أي مصر والسودان ، وهما بلدان عُرف سكانهما القدامى ببناء الأهرامات خلال عهد طويل من تاريخهما. وكان الاتجاه السائد في هذا الشأن هو أن ينسب مصدر هذا التأثير إلى الثقافة المروية في السودان ، بما أن عاصمتها مروى قد ظلّت قائمة لفترة تناهز التسعمائة عام (القرن السادس قبل الميلاد إلى سنة ٣٥٠ ميلادية). وكانت الأهرامات ، خلال هذه الفترة الطويلة ، المكان المعتاد لدفن ملوك مملكة مروة وعائلاتهم (شينّي Shinnie ، ١٩٦٧ ، ص ٥٢). ومع ذلك فمن المؤكّد أن الثقافة المروية بوجه عام والمدافن الهرمية بوجه خاص ، كانت هي ذاتها نتاجًا للتأثير المصري ، ولا سيّما تأثير المملكة الحديثة (– ١٥٨٠/– ١١٠٠). بيد أنه يُستبعد أن يكون التأثير المصري قد انتقل بصورة مباشرة من وادي النيل إلى وادي الآجال في تلك الفترة المبكرة في عهد الأسرات المصرية العظيمة ، وعلى ذلك يكون لوضع مملكة مروى وتاريخها دلالتهما الكبيرة.

إن التاريخ الذي حدّد لأهرام وادي الآجال هو فترة تردّي المملكة المروية التي يُرجَّح أن تكون مصدر هذا الطراز من عمائر الدفن. وتُعدّ النماذج المبنية في جبل باركل أكثر النماذج المروية احتفاظًا بحالتها الأصلية فهي نماذج أقدم عهدًا ، تمّ بناؤها في القرن الأول قبل الميلاد ، وقد كانت الحضارة المروية في أوج ازدهارها (دونهام Dunham، ١٩٥٧ ، المجلّد الرابع ص ٩١). أما في

الجبّانة الشمالية الموجودة في بقرية ، فتوجد مدافن قديمة ترجع إلى القرن الرابع الميلادي (المصدر السابق ، ١٩٥٧ ، المجلّد الرابع ص ١٩١ ؛ شيني ، ١٩٦٧ ، ص ١٥٢).

وممّا يؤسف له أن أية محاولة لمقارنة الأهرام المروية بأهرام وادي الآجال تنحصر في المقارنة بين شكل المدافن ووجهتها. فعلى حين تتّجه مدافن مروى ، عادة نحو الغرب أو الجنوب الشرقي ، تتّجه معظم مدافن وادي الآجال ناحية الشرق. ولم يتمّ العثور ، في وادي الآجال ، على أية مقابر مسورة أو ملحق بها معابد صغيرة وإن كانت اللوحات الحجرية التقليدية وموائد تقديم القرابين موجودة دائمًا.

وكان مكان الدفن في الشريج بوادي الآجال يقع فيما يبدو أسفل كومة من الأحجار تحت الهرم نفسه ، ويعلوه ممر رأسي. ومع ذلك لا يملك أحد حتى الآن تكوين فكرة عن حجم اللحد ذاته ولا عن اتّجاهه. كل ما هنالك أنه يمكن الإفتراض أن الجثث كانت تُدفن في وضع القرفصاء.

وفيما يتّصل بالجوانب الأنثروبولوجية لبناة أهرام وادي الآجال ، طرح البعض احتمالاً مؤداه أن بناء المدافن ربّما كان نتيجةً لمجيء عنصر أجنبي ، قد يكون مصريًا ، أو نوبيًا ، إذ توضح النتيجة التي خلص إليها سيرجي Sergi من دراسة جمجمتين عُثر عليهما في الشريج ، أنهما تنتميان إلى عنصر أوروبي – أفريقي (كابوتو وآخرون ، ١٩٥١ ، ص ٣٧١ – ٣٧٣). إلاّ أن السادة التي أسفرت عنها البحوث المحدودة التي أجرتها البعثة الإيطالية من الضآلة بحيث لا يمكن أن يستخلص منها أية نتائج جادة. وفضلاً عن ذلك ، فقد اقتصرت هذه البحوث على جبّانة الشريج وحدها. ويشير اكتشاف جبّانة الحاتيه ، ونماذج متفرّقة أخرى للمدافن الهرمية أن الجارامنت استخدموا هذا الطراز على نطاق أوسع ممّا كان معتقدًا من قبل. ويقتضي الأمر إجراء مزيد من الدراسات لهذه القبور.

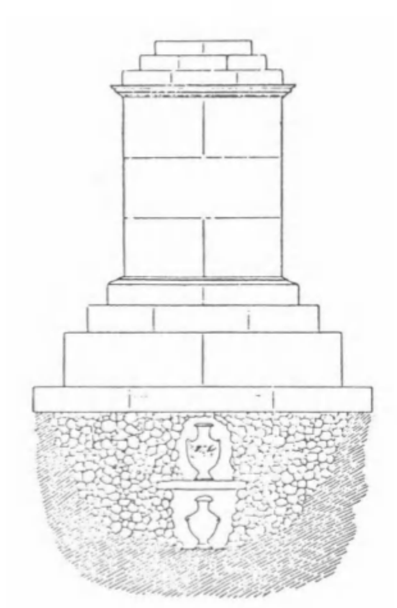
وربّما لا يعدو اختيار الشكل الهرمي للمدافن في وادي الآجال أن يكون مسايرة لنمط شائع. كما يحتمل أن يكون وجود هذا الطراز من المدافن دليلاً على قيام اتّصال بين السكان القدامى لوادي الآجال وسكان مروى. فالواقع أن هناك من يقولون بأن مملكة كوش المستقلة الأولى أسّسها الأسلاف الليبيون للبيانكلي. (ريسنر Risner ، ١٩٢٣ ، ص ٣٤). ويُقال أيضًا أن أفراد قبيلة القوران في السودان هم أسلاف الجارامنت (كروان Kirwan ، ١٩٣٤ ، ص ٢٠١ – ٢٠٢). إلاّ أنه لا بدّ من حل مشكلة أنثروبولوجيا القبيلة قبل أن نستطيع الشروع في تحديد مثل هذه العلاقة.

ضريح جرمة

ويتمثّل الطراز الأخير للمدافن في أرض الجارامنت فيما يُسمّى بضريح جرمة أو قصر الوطواط (الشكل ١٥) الذي اعتُبر لفترة طويلة نموذجًا فريدًا للتغلغل الروماني في الصحراء الكبرى ، والذي

صفر ١٠ أقدام

الشكل ١٥ : ضريح جرمة ، ويحتمل أن يكون قد حدث ترميم للقوصرة بأعلى الواجهة ، س.م. دانييلز .



الشكل ١٦ : قبر بطليموسي في جبانة الشاطبي (نقلاً عن برتشيا) .

يُعرف الآن بأنه النموذج الوحيد المتبقّي ممّا لا يقل عن خمسة أضرحة كانت تقع جميعًا في منطقة جرمة . ولكن لا بدّ لنا من النظر إلى أمثلة أخرى من الأضرحة في شمالي افريقيا ، قبل أن ننظر في طبيعة هذا الأثر المعماري الشهير ، سعيًا إلى فهمها .

إن الطراز المحلّي الأقدم عهدًا للأضرحة في شمالي افريقيا يتّفق والشكل المتعارَف عليه لعمائر الدفن البربرية العادية (الشكل ١١) . ويمكن رؤيته ، في أكبر حجم له ، في المقابر التي كانت تُقام للأسر الملكية المحلية ، والتي استُنبطت بالتأكيد من مقابر بسيطة أسبق عهدًا .

وتوجد ثلاثة أمثلة على هذه المقابر ، كلها في الجزائر وهي : المدرسين في منطقة باتنه و « قبر الرومية » في أرابيه ، بالقرب من تيبازا ، وجِدّار الجبل الأخضر ، بالقرب من تيارت .

وهناك طراز آخر من الأضرحة في شمالي افريقيا هو الطراز البرجي . وجميع هذه الطرز عبارة عن أبنية طويلة ، مربّعة أو مستطيلة القاعدة ، وتقوم على قواعد مدرّجة في الغالب . وهذا الطراز من المدافن شائع في شمالي افريقيا وفي مناطق البحر المتوسط ، فهو موجود في فرنسا وإيطاليا وصقلية

ودلماسيا. وهناك نماذج أخرى من سوريا، وبلاد الرافدين. ويُعتقد أن الأضرحة التي تتّخذ شكل الأبراج أضرحة سورية المنشأ (بويثيوس ووارد – بيركنز Boethius و Ward-Perkins ١٩٧٠، ص ٣٠١).

وينتمي الضريح ب في صبراطة (دي فيتا Di Vita ، ١٩٦٨، ص ١٦ – ٤٤) وضريح بني رحنان، في منطقة وهران بالجزائر، إلى نفس الطراز، ويمكن وصفهما بأنهما من طراز بوني – هلّينستي، على خلاف مقابر المدرسين التي تنتمي إلى طراز ليبي – بوني.

وتوجد من هذا الطراز مجموعة من الأضرحة تنتشر انتشارًا واسعًا في كل أرجاء مشارف الصحراء الجزائرية – الليبية. ويرجع أول ظهور هذا الطراز إلى العهود البونية أو الهلّينستيّة، ثم استمرّ خلال العصر الروماني، وأبرزها على الإطلاق مجموعة الأضرحة الموجودة في جرزه. ففي هذا المكان يوجد أربعة عشر قبرًا مقسّمة بين الجبّانة الشمالية والجبّانة الجنوبية اللتين كانتا ملحقتين بمحلة كبيرة محصّنة تعود إلى القرنين الثالث والرابع الميلاديين (بروجان Brogan ، ١٩٥٥، ص ١٧٣). وهذه المدافن تنقسم بدورها إلى فئتين: مدافن على هيئة معبد، ومدافن على هيئة مسلة.

ومع ذلك يبدو لي أن ضريح جرمة لا ينتمي إلى طراز الأضرحة الساحلية، مثل صبراطة ب، ولا إلى المدافن الموجودة على مشارف الصحراء. فهو يبدو، بالمقارنة بها، صغير الحجم غير متقن. ويبدو أن هذا الضريح، بعد ترميمه الأخير، قد كُلّل بقوصرة وُضعت فوق مقدس يقوم على جدار منخفض بارز. وهذه السمات ليست شائعة على الإطلاق، سواء في المناطق الساحلية أو عند مشارف الصحراء. وما يجعلها غير مألوفة هو افتقارها إلى غرفة دفن تقع تحت الأرض. ومن شأن هذه العناصر جميعها أن تجعلنا نتردّد في إدراج هذا المبنى في عداد الأضرحة. ومع ذلك فإن البعثة الإيطالية لعام ١٩٣٣ قد عثرت، في الجانب الغربي، في مكان يبعد عن هذا الصرح بأقل من متر، على قبرين تحت كومة من الرمال والأحجار. وكان كل قبر من هذين القبرين يحتوي على أمفورة رومانية، من ذلك الطراز الذي شاع في القرن الأول أو الثاني الميلادي، مملوءة بعظام محروقة. ويُقال إن هذين القبرين يتّصلان بالصرح (كابوتو وآخرون، ١٩٥١ ص ٢٦٨ – ٢٧٠). ولمّا كانت عادة إحراق جثث الموتى نادرة جدًا في وادي الآجال، فمن المرجح أن يكون الإفتراض القائل بارتباط هذين القبرين بالصرح افتراضًا سليمًا. وتحيط بالضريح جبّانة مدافنها من طراز الشاهد العادي الذي كان شائعًا في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني.

وقد تجدر الإشارة في هذا المقام إلى صرح له نفس سمات ضريح وادي الآجال، ونعني به المقابر التي عُثر عليها في مدافن الشاطبي في الإسكندرية البطليموسية. وتتكوّن كل مقبرة من هذه المقابر من مقدس يرتكز إلى قاعدة مدرَّجة ويكلّله افريز تعلوه درجات (الشكل ١٦). وقد تمّ العثور، تحت الصرح على جرّتين تحتويان على رماد جثث محروقة ويفصل بينهما لوح حجري دون أن

تكون هناك مع ذلك غرفة دفن. وترجع هذه المقابر إلى القرن الثالث قبل الميلاد (بريتشيا Breccia ، ١٩١٢ ، ص ١٥). وهذا تاريخ مبكر نسبيًا. ومع ذلك فمّا له دلالته أن هذا الطراز من المدافن قد ظهر في هذا المكان في وقت قد يكون سابقًا على ظهوره في مناطق أكثر إيغالاً في اتجاه الغرب في شمالي افريقيا.

وفيما يتّصل بطبيعة ضريح جرمة، فإننا حين ننظر إلى شكله الكلاسيكي وزخارفه الكلاسيكية البحتة فإنه يستصوب أن ننظر إليه في إطار روماني، عوضًا عن أن ننظر إليه في إطار محلي أو حتى بوني، نظرًا لأن له سمات ذات طابع روماني. إلاّ أنه في حجمه وشكله النمطيين يذكّرنا بصروح مماثلة في المقبرة الغربية في تبسة (الجزائر) تحمل مزيجًا من السمات الرومانية والبونية. أما من حيث التفاصيل، مثل استخدام السقف المثلّث بدلاً من الهرم، فهو لا يعدو أن يكون على غرار المباني الحجرية في جرمة. وعلى الرغم من أن الذين أقاموه كانوا في أغلب الظن حرفيين استُحضروا من الخارج، فإنه يرجّح أن يكون قد أُقيم لشخصية محلية هامة ربّما كانت أحد رؤساء الجارامنت.

شواهد القبر الجارامنتي

على خلاف شواهد القبور المنتمية إلى ثقافات معاصرة والموجودة في حوض البحر المتوسط، فإن نماذج قليلة جدًا من شواهد قبور وادي الآجال هي التي تحمل نقوشًا، وقد ثبت، حيثما تمّ العثور على هذه النماذج، أنها حديثة العهد نسبيًا. ويترتّب على ذلك أن تظلّ الأمور غامضة إلى حدٍّ كبير حين نبحث عادات الجارامنت ومعتقداتهم، وأغلب الظن أن هذا الأمر كان أيضًا من أسباب عدم بذل أية محاولة لدراسة شواهد قبور الجارامنت دراسة منهجية وبحث طبيعتها.

ويبدو أن النماذج الأولى للشاهد البسيط لم يكن لها أي شكل من أشكال النصب التذكاري. وكان تطوّر المدافن هو الذي أدّى فيما يبدو إلى إدخال شكل العمود القائم الذي ظهر في وقت ما لم يتسنَّ تحديده. وتتكوّن هذه الشواهد في بعض الأحيان من أكثر من بلاطة، فكثيرًا ما نجدها تتكوّن من بلاطتين أو ثلاث بلاطات متّصلة ببعضها البعض.

وتكشف الجبّانات الأحدث عهدًا الموجودة في وادي الآجال عن مرحلة أخرى من مراحل تطوّر طرز المقابر. كما تبيّن الظهور المفاجئ لشواهد أكثر إتقانًا وتطوّرًا يبدو أنها شاعت بغتة. ولمّا كانت هذه الشواهد متنوّعة الأشكال فإنها تصنّف في مجموعات مثل المجموعة العمودية ومجموعة القرون ومجموعة الكفوف. وتظهر هذه الشواهد في جبّانات تحتوي على أوان فخّارية رومانية ترجع إلى فترة ما من القرن الأول الميلادي أو إلى فترة تسبقه بقليل.

وتنصبّ الأسئلة الملحّة المطروحة بشأن هذه الشواهد المتطوّرة على معرفة معناها ومنشئها، وهل هي محلية الأصل أم أنها نتاج لتأثير أجنبي، أم مزيج من الإثنين؟

الشواهد العمودية الشكل

كان للمقابر القديمة في وادي الآجال بلاطتان كبيرتان توضعان متعامدتين تقريبًا كشاهد يتّخذ شكلاً جمالونيًا بدائيًا جدًا (الشكلان ١٧ و١٨). وربّما لم يكن ذلك وليد الصدفة. فهذه الشواهد تُعتبر امتدادًا لشواهد القبور المنتمية إلى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. ومن أمثلتها شاهد في قرطاجة تحمل واجهته نصوصًا وزخارف بونية من ذلك النوع المألوف للباحثين والذي يتضمّن رسمًا لقرص الشمس والهلال ويصوّرهما متّجهين نحو الأسفل (الشكل ١٩). وقد ذهب البعض إلى أن هذا التغير في طراز الأعمدة البونية كان نتيجة لظهور الإلّهة تانيت على رأس مجموعة آلهة القرطاجيين (بيسي، ١٩٦٨، ص٢١). وفيما يتّصل بالنماذج الجارامنتية فما من أحد يعرف على وجه اليقين ما إذا كان العمود الذي ينتهي بمثلّث له دلالة واحدة في كل الأحوال. وغاية ما يمكن قوله في هذا الشأن هو وجود تماثل بين شواهد فزان والشواهد البونية اللاحقة. وعلى ذلك يمكن أن نفترض أن الجارامنت ربّما يكونون قد استوحوا شواهد قبورهم من العمود البوني. ولا غرابة إذن أن تكون معظم الشواهد المكلّلة بمثّلث، كالشواهد الموجودة بمنطقة قصر الوطواط وفجيج، من أقدم الطرز في وادي الآجال.

الشواهد القرنية الشكل

ظهر استخدام القرن كرمز لأول مرة في وقت مبكر يرجع إلى العصر الحجري الحديث (الشكل ٢٠)، ويمكن تتبّع تاريخه بسهولة حتى العصر الروماني. وفضلاً عن ذلك فإن هذا الرمز ينتشر عبر رقعة شاسعة تمتدّ من مواقع العصر الحجري الحديث في الصحراء الكبرى إلى مواقع في حوض البحر المتوسط.

وفي فزان، ظهرت الشواهد القرنية الشكل مع المدافن الأولى في الجبّانة الجنوبية (Nécropole Méridionale) والجبّانة الصرحية (Nécropole Monumentale) (الشكل ٢١). وكانت بعض الشواهد التي عُثر عليها بجوار المدافن غير مصقولة وذات شكل ساذج على حين كان البعض الآخر مصقولاً بعناية ومتناسق الشكل.

وقد بُذلت عدّة محاولات للربط بين رمز القرن الذي يظهر في النتوش الصخرية في فزان والقرون المصوّرة في رموز مماثلة والتي ترجع إلى فترات لاحقة وتنتمي إلى ثقافات أخرى. وقيل إن مجموعة القرون الشعارية التي عُثر عليها في ليبيا تعبّر، في حالات كثيرة، عن برج من الأبراج السماوية والقمر أو الشمس أو النور بوجه عام.



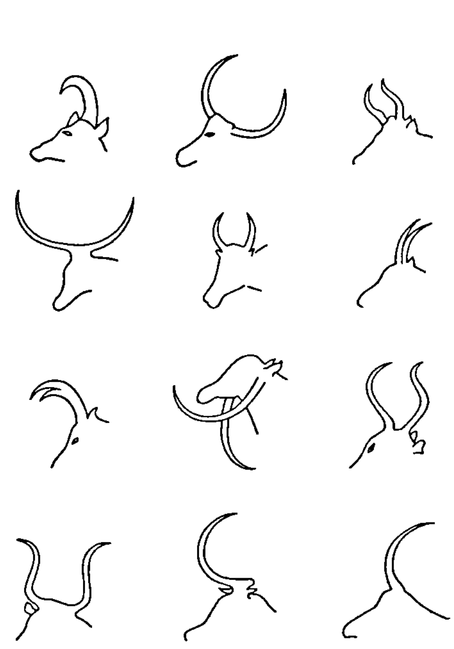
الشكل ١٧ : شاهد القبر رقم ١٨ ذو الأكليل الجمالوني (١٣) (نقلاً عن دانييلز).



الشكل ١٨ : شاهد أعلاه مدبب ، من المقبرة رقم ٢ في الجبانة الشرقية (نقلاً عن كابوتو).



الشكل ١٩ :
شاهد من قرطاجة
ذو أكليل حمالوني .



الشكل ٢٠ : تمثيل استيعادي للقرن في الفنون الصخرية الليبية (نقلاً عن وينوارات) .

وفي معظم الحالات كان القرن يُرسم بأسلوب تجريدي أو غير واقعي (وينورات – سكوت وفابري ، ١٩٦٦ – ١٩٦٧ ، ص ٢٣٣ – ٢٣٩) .

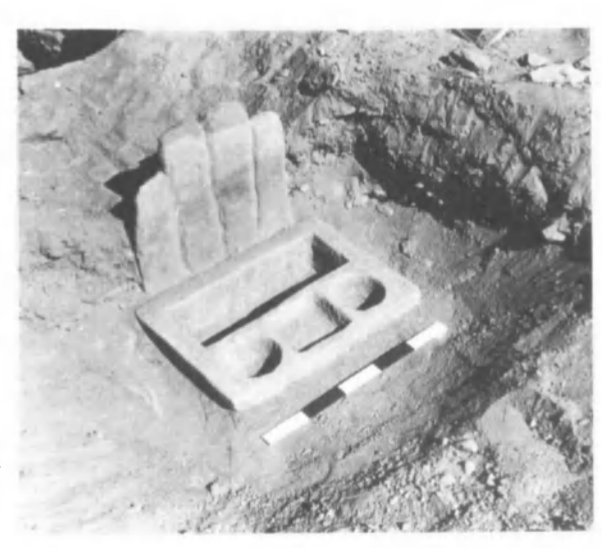
وعلى ذلك يمكن الافتراض أن كل ما فعله الجارامنت هو أنهم استمرّوا على تقاليد العصر الحجري الحديث وانتقلت منهم إلى العصور الوسطى ممّا أتاح لرمز القرن أن يظلّ باقيًا حتى وقتنا هذا .

الشواهد التي تتّخذ شكل الكف

هذا الطراز من شواهد القبور طراز يسهل التعرّف عليه ، فهو عبارة عن بلاطة حجرية ذات وضع قائم وتستند عادةً إلى جدار المقبرة وتقع دائمًا وراء موائد تقديم القرابين (الشكل ٢٢) . وهو يُنحت عادةً من الحجر ويبلغ طوله في المتوسط مترًا واحدًا وعرضه ستين سنتيمترًا . وقد اتّفق الباحثون على تسميته « الكف » بسبب شكله غير المألوف ولكونه شبيهًا بالكف البشرية . ويتكوّن الشاهد ، في هذا



الشكل ٢١ : شواهد على شكل قرن من صينية بن هويدى (نقلاً عن دانييلز).



الشكل ٢٢ : شاهد على شكل كف
ومائدة قرابين من قبر
يرجع إلى العهد الروماني
في جبانة زنشيكرا
(نقلاً عن دانييلز).

الطراز ، من ثلاثة أو أربعة أجزاء يقسمها مجريان أو ثلاثة مجار عمودية محفورة في الشاهد ، ممّا يسفر عن ثلاثة أو أربعة تقسيمات تبدو شبيهة بالأصابع البشرية.

ويبدو أن استخدام كلمة الكف في وصف هذه الشواهد قد استوحي من تصوير الكفوف المنحوتة على الأعمدة البونية ، ومن ثم كان الاعتقاد بأن « الكفوف الجارامنتية » قد تكون نتاجًا لتأثير بوني. فقد ظهرت الكف في الفنون البونية قبل استخدام الشواهد الجارامنتية بزمن طويل ، وترجع النماذج الأولى من الأعمدة التي تحمل نقوشًا للكفوف إلى القرن الثالث قبل الميلاد. كما ينبغي الإشارة إلى أن الكف البونية تُعدّ بوجه عام كفًا مطابقة للواقع منقوشة على العمود الحجري أو محفورة عليه.

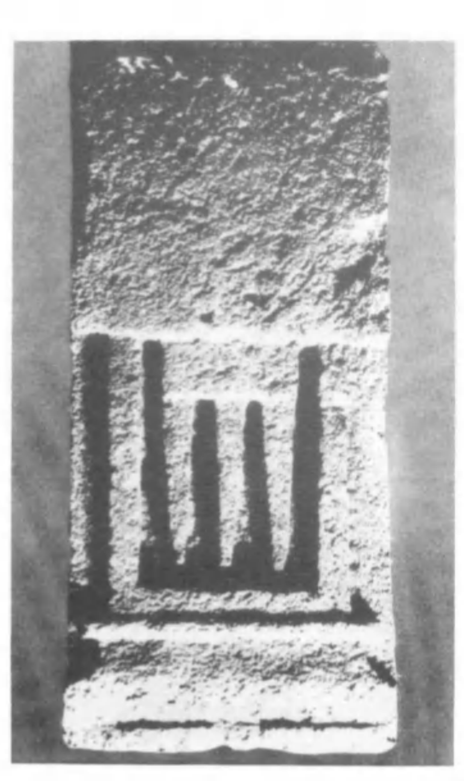
ففي النماذج الأولى للأعمدة البونية التي يرجع عهدها إلى القرن الرابع قبل الميلاد ، يشاهد الرسم الذي يصوّر ذكرًا أو أنثى رافعًا يده اليمنى محفورًا في تجويف مستطيل. وقد فسّر هذا الرسم على أنه يصوّر كاهنًا أو كاهنة أثناء الصلاة ، وهو يظهر دائمًا بنفس الشكل. وفي أمثلة لاحقة ، لم تبقَ سوى الكف التي كانت تُنحت في بعض الأحيان في الإكليل العلوي الجمالوني للشاهد (الشكل ٢٣) ، وأحيانًا تحتل لوحة في واجهة الشاهد مع مجموعة من الرموز الأخرى بما فيها رمز تانيت. أما الكفوف الجارامنتية فتبدو مختلفة اختلافًا كبيرًا. فمعظمها يتكوّن من أربعة أصابع وإن كان بعضها يتكوّن من ثلاثة ، ولكن لا توجد من بينها كف واحدة بها خمسة أصابع. وإزاء هذا القدر الكبير من التباين في الحجم والشكل ينتفي ، في حقيقة الأمر ، احتمال وجود أي قصد لتصوير كفوف بشرية على شواهد قبور الجارامنت.

ومع ذلك توجد نماذج من شواهد القبور البونية شبيهة نوعًا ما بالشواهد الجارامنتية ، وهي الشواهد القرطاجية حيث يُقال إن العمود الحجري يمثّل رمزًا يصوّر الآلهة (الشكل ٢٤). والواقع أن صورة الإله كانت تلقى من التبجيل ما يلقاه الإله نفسه بيسي. ١٩٦٨ ، ص ١١٩). وتظهر هذه الرموز على الأعمدة القرطاجية بأشكال مختلفة ، فمنها العمودية الشكل ومنها المستطيلة أو التي تضيق تدريجيًا مع اتجاهها إلى قمة الشاهد. كما يتفاوت عدد الرموز المحفورة على كل شاهد. وكثيرًا ما نصادف رموزًا فردية أو مزدوجة أو ثلاثية. وهناك شاهد من تونس عليه ما لا يقل عن ستة رموز محفورة على عمود واحد ، وهذا نسق قورن أيضًا بشاهد مقدمس بوني.

إن دراسة هذه الشواهد البونية تعد أمرًا هامًا لكل من يحاول فهم سر شواهد القبور الجارامنتية التي تتّخذ شكل الكف. ومع ذلك فإن عدم وجود أي نصوص منقوشة يزيد من صعوبة فهم هذا السر ولا يدع لنا سبيلاً سوى التخمين والتكهّن. ولكن ليس من المستحيل الإفتراض بأن ما يسمى بالكفوف الجارامنتية قد يكون ، شأنه شأن النماذج الفينيقية والقرطاجية ، رسمًا تصويريًا أو رمزيًا لآلهة غير معروفة.



الشكل ٢٣ : شاهد بوني مزخرف برسوم بارزة من بينها رمز الآلهة تانيت. (نقلاً عن موسكاتي).



الشكل ٢٤ : شاهد فينيقي له ثلاثة أنصاب (نقلاً عن موسكاتي).

موائد تقديم القرابين

كثيرًا ما نجد أمام هذا الشاهد موائد لتقديم القرابين عبارة عن كتل من الحجر المنحوت متفاوتة الأحجام، تُوضع عادةً على الجانب الشرقي أو الغربي للمدفن أمام الشواهد. وكان الغرض من هذه الموائد هو أن تحمل القرابين التي يقدّمها أقارب الميت، سواء للميت نفسه، – أو للميتة – أو للإله المرسوم على الشاهد.

ومعظم موائد الجارامنت مستطيلة الشكل ومقسمة إلى جزءَين: الأول عبارة عن تجويف مستطيل كبير (يكون عادة بجوار الشاهد)، على حين توجد في الثاني تجويفات أصغر. وتوجد في زنشيكرا مائدة لتقديم القرابين ترجع إلى العصر الروماني، حُفرت فيها التجويفات بإتقان بالغ

(الشكل ٢٢). ويشغل التجويف الكبير نصف الشاهد، على حين يشمل النصف الآخر ثلاثة تجويفات أصغر حجمًا.

وتكشف موائد تقديم القرابين الموجودة في سبها، لأول وهلة، عن تباين واسع في الأشكال وعدد التجويفات وحجم الموائد (الشكل ٢٥). ويتراوح ارتفاع المائدة، في المتوسط، بين ٢٠ و٢٥ سنتيمترًا، على حين يتراوح طولها بين سبعين ومائة سنتيمتر وعرضها بين أربعين وخمسين سنتيمترًا. وعادة ما يكون التجويف المستطيل عميقًا جدًا بالمقارنة مع التجويفات الأصغر والتي غالبًا ما يكون عمقها ضئيلاً.

ولمّا كانت الموائد الافريقية تختلف اختلافًا بيّنًا من حيث شكل زخارفها، فإنه لا بدّ لنا الآن من بحث الأنماط المختلفة التي عُثر عليها والتي يتبيّن، لدى بحثها، أنها تنقسم إلى أربعة أنواع مختلفة على الأقل.

ويُعدّ النوع الأول النمط الأكثر إتقانًا بين موائد تقديم القرابين، وعادةً ما يكون مستطيل الشكل ومصنوعًا من أنواع مختلفة من الحجارة. وتوجد في الأجزاء العلوية من هذه الموائد رسوم بارزة تصوّر أواني توضع فيها سوائل تُراق تكريمًا للآلهة، وأرغفة خبز وقطع من اللحم أيضًا. وتوجد أمثلة لهذه الموائد في الغاريات وتابونيا ووادي أم الأجايرم (د. سميث، عمل لم يُنشر).

ويتّخذ النوع الثاني من الموائد شكلاً مماثلاً: فهو مصنوع من الأحجار وبه تجويفات غير مستوية محفورة على السطح العلوي. وعلى حين توضع القرابين في التجاويف يحمل السطح العلوي شاهدًا مستقيمًا. وهذا النوع أيضًا كان موجودًا في ليبيا، عند مشارف الصحراء، وتوجد بمتحف طرابلس أمثلة له من وادي العمود وتابونيا وسرت الخ... وفي بعض من هذه الموائد لا يبدو واضحًا ما إذا كان الغرض من التجويف الكبير هو أن يحمل شاهدًا مستقيمًا. على أن الأثر المصنّف طرابلس ٢٤٥٦، ما زال يحمل أجزاء من العمود مغروسة في التجويف (الشكل ٢٦).

ويُعتبر النوع الثالث نوعًا نادرًا لا يوجد إلاّ في شيرزا عند مشارف الصحراء في ليبيا. وهو عبارة عن كتلة مستطيلة وضيقة من الأحجار بها تجويفان أو ثلاثة أو أربعة تجاويف دائرية أو مستطيلة. ويوجد في حجر واحد سبعة تجاويف دائرية، ويبدو التجويف الذي يتوسّط الحجر أكبر نسبيًا من التجاويف الأخرى (بروجان، ١٩٥٥، ص ١٨٤).

ولئن كان من الشطط، في حدود معارفنا الحالية، أن نحدّد منشأ أي نوع من هذه الأنواع من الموائد تحديدًا جازمًا، فإنه يمكننا بالتأكيد الإفتراض بأنه لمّا كان النوع الثاني من الموائد منتشرًا في كثير من أنحاء شمال غربي افريقيا، فإنه يحتمل أن ينطوي على عنصر محلي. ويوجد أيضًا تأثير خارجي، ليس يونانيًا كما يُستبعد أن يكون بونيًا. ومن المرجّح أن يكون هناك بعض من التأثير الروماني. وثمة احتمال آخر لا ينبغي لنا أن نتغاضى عنه وهو تأثير مصر، أرض الفراعنة.

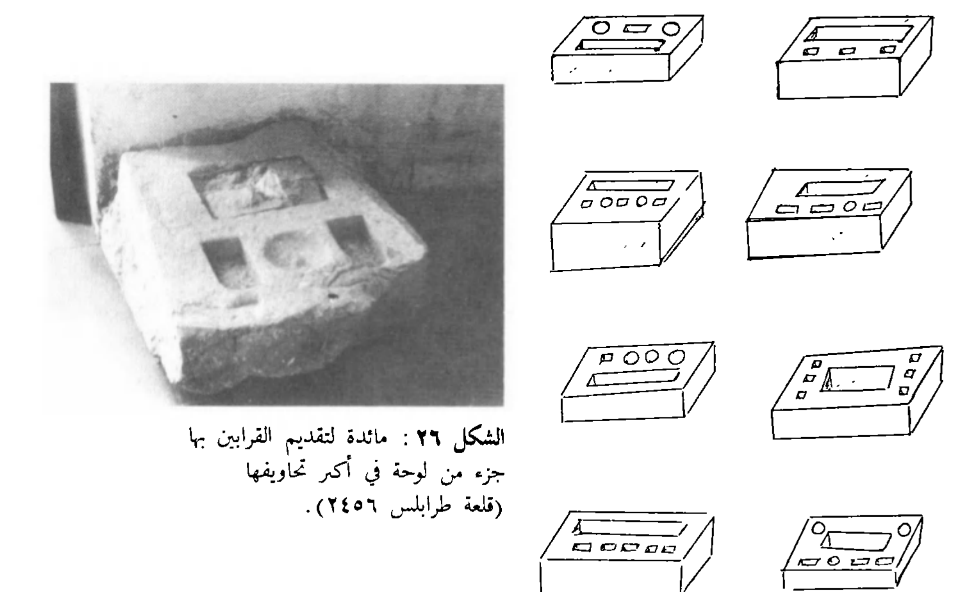
فقد ظلّت عادات وتقاليد الموتى في مصر مستمرّة بإطّراد لفترة تربو على ثلاثة آلاف عام. ومن ثم فربّما لم يكن من المستغرب أن نجد أوجه تناظر بين العديد من أنواع موائد تقديم القرابين التي عُثر عليها في فزان، وعند مشارف الصحراء، وفي المناطق الساحلية.

إن تقليد وضع مائدة لتقديم القرابين يُعدّ تقليدًا عريقًا في مصر القديمة. فقد ظهر في عهد المملكة القديمة (– ٢٧٧٨/– ٢٣٠٠) واستمرّ في المملكة الحديثة (– ١٥٧٠/– ١٠٧٥) : أي أنه ظلّ قائمًا لفترة طويلة : وخلال هذه الفترة التي تربو على الألف عام، شهدت عادات الدفن بوجه عام وموائد تقديم القرابين بوجه خاص تغيرات تدريجية. وكانت هذه الموائد، في بادئ عهدها، موائد بسيطة تتمثّل سمتها الرئيسية في وجود تجويف مستطيل الشكل. ولعلّ في ذلك ما يشير إلى أهمية القرابين السائلة في المملكة القديمة. ونجد أحيانًا في مائدة واحدة من هذا النوع تجويفًا أو تجويفين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر. وكان سطح هذه الموائد يحمل نقوشًا مرسومة أو محفورة تصوّر مشاهد مختلفة كما تصوّر القرابين (فانديبه، ١٩٥٤، المجلّد الثاني، ص ٥٢٢). وفي إحدى هذه الموائد (الشكل ٢٧) توجد أربعة تجاويف مستطيلة وثماني تجاويف دائرية محفورة على سطح المائدة، أما وسط المائدة فقد حُفرت عليه نقوش تصوّر مشاهد مختلفة. كما زيّن إطار المائدة بنقوش تمثّل حيوانات وبأنواع مختلفة من الأواني والرموز. والواقع أن الموائد التي ترجع إلى بداية عهد المملكة القديمة هي التي تشبه كثيرًا بعض هذه الموائد الليبية.

وتوضح مرحلة أخرى من مراحل تطور المائدة المصرية، وإن كانت تنتمي أيضًا إلى المملكة القديمة، إدخال أشياء مختلفة تشمل رسومًا لأشكال بشرية منقوشة ببروز بسيطة. والأكثر من ذلك أهمية إدخال علامة حيتب 𓊵 *(Hetep)* التي تصوّر حصيرًا ورغيفًا من الخبز. ويشغل هذا الرمز عادة جانبًا من الجوانب الطويلة للمائدة مع تجويف واحد أو عدّة تجاويف (فانديبه ١٩٥٤، المجلّد الثاني، ص ٥٢٨). كما توجد نقوش تصوّر أيضًا أواني وخبزًا وحلوى وغير ذلك من الأشياء. ويبدو أن موائد تقديم القرابين كانت قد فقدت أهميتها بحلول عهد المملكة الجديدة (– ١٥٧٠/– ١٠٧٥) حيث لا توجد منها إلاّ أمثلة نادرة. فقد تغيّر شكلها إلى مستطيل على هيئة صينية وأصبحت الموائد المربعة قليلة. كما لم تعد علامة حيتب تُحفر على المائدة، إذ أصبحت المائدة نفسها تصوّر هذه العلامة (الشكل ٢٨).

وممّا يسترعي الانتباه ذلك التشابه في مظهر بعض هذه الموائد المصرية والموائد التي سبق ذكرها والتي عُثر عليها في غاريات وتابونيا على مشارف الصحراء الليبية. إلاّ أن الفارق التاريخي بين الموائد المصرية والموائد الليبية يزيد على الألف عام. فهل يحتمل أن تكون هناك حقًا صلة بين النوعين؟

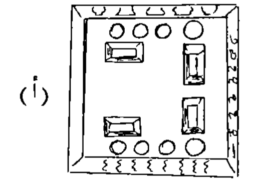
وهناك من ناحية أخرى احتمال أقوى في أن تكون الثقافة المروية في السودان قد شكّلت مصدر تأثير. وقد استمرّت مملكة مروى من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن الميلادي الرابع،



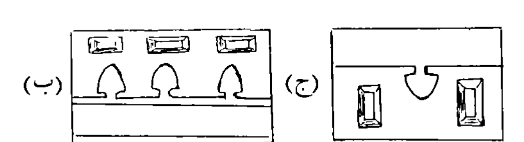
الشكل ٢٥ : مائدة حارامتية نمطية لتقديم القرابين موجودة بمتحف سبها.

الشكل ٢٦ : مائدة لتقديم القرابين بها جزء من لوحة في أكبر تحاويفها (قلعة طرابلس ٢٤٥٦).

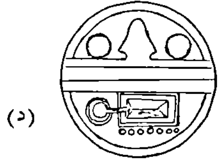
(أ)



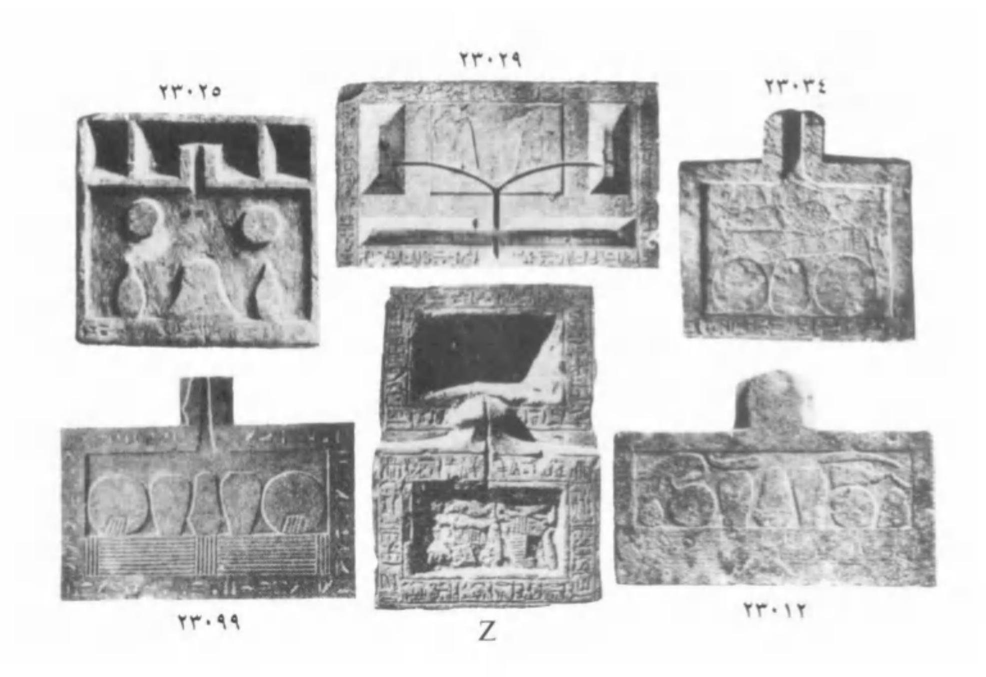
(ب) (ج)



(د)



الشكل ٢٧ : (أ) مائدة لتقديم القرابين تنتمي إلى المملكة القديمة ؛
(ب ، حـ ، د) مائدة لتقديم القرابين متقنة الشكل تنتمي إلى المملكة القديمة (نقلاً عن فانديه).



الشكل ٢٨ : مائدة نمطية لتقديم قرابين من عهد المملكة الوسطى (القاهرة **٢٣٠٢٥ ، ٢٣٠٢٩**). مائدة نمطية لتقديم قرابين من عهد المملكة الحديثة (القاهرة **٢٣٠٣٤ ، ٢٣٠٩٩ ، ٢٣٠١٢**. (z) مائدة لتقديم القرابين من دير المدينة تنتمي الى المملكة الحديثة.



الشكل ٢٩ : مائدة لتقديم القرابين من عهد الملك المروي آرفيسيخ
(النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد).

ويعتقد أن ثقافتها كانت في أساسها مصرية الطابع. ويبدو أن موائد تقديم القرابين كانت معروفة جيدًا لسكان مروى القدامى، إذ تمّ العثور على قدر كبير من هذه الموائد في الجبّانات المحيطة بالمواقع القديمة في المملكة المروية. وتوجد هذه الموائد عادةً أمام مداخل المقابر.

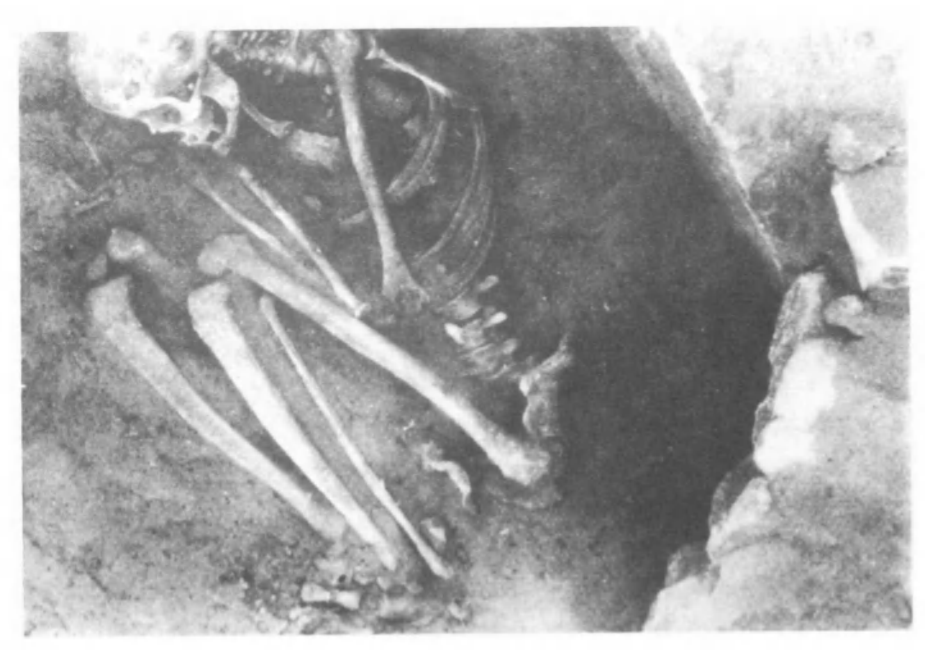
وتوجد في العادة نقوش على موائد تقديم القرابين المروية وإن كان هذا لا يشملها جميعًا. وترجع أقدم الأمثلة إلى القرن السابع قبل الميلاد (دونهام ١٩٥٥، ص ٢٣). وكانت هذه الموائد تُصنع من الجرانيت الرمادي اللون وتحمل نقوشًا قليلة البروز تصوّر القرابين. ويظهر على الموائد التي يرجع عهدها إلى القرن الرابع مزيد من النقوش التي تصوّر الطعام (دونهام، ١٩٥٥ ص ٢٢٦). وفي الموائد التي تنتمي إلى فترة لاحقة (القرن الأول قبل الميلاد/القرن الميلادي الأول) تحلّ محل النقوش التي تصوّر الطعام مشاهد تصوّر كائنًا نصفه إنسان ونصفه ابن آوى وهو الإله أنوبيس الذي يمثّل الروح في الديانة المصرية (الشكل ٢٩). وفي مواجهته توجد الإلّهة نفتيس (دونهام، ١٩٥٥، ص ١٣٧).

وليس هناك أي وجه للشبه بين موائد تقديم القرابين في وادي الآجال وبين النموذج المروي منها. ففي وادي الآجال كانت الموائدأكثر سمكًا ونادرًا ما تحمل نقوشًا. كما يمثّل وجود تجاويف بها وجهًا آخر من أوجه الإختلاف. وفضلاً عن ذلك، فإن نوع الشواهد الذي يقترن عادةً بالنماذج الموجودة في وادي الآجال، لا يشبه مطلقًا شواهد مروى. وتقدّم منطقة مشارف الصحراء أمثلة لجميع النماذج المذكورة في مصر والنوبه وشمال غربي افريقيا. وليس من السهل، في حدود معارفنا الحالية، أن ننسب منشأ المائدة الجارامنتية إلى أي مصدر من المصادر، على الرغم ممّا يُقال من أن المقبرة الهرمية تحمل تأثيرًا مرويًا.

طقوس الدفن

يبدو أن الجارامنت قد مارسوا نوعًا واحدًا فقط من الدفن، هو دفن الموتى في وضع القرفصاء. فكان الجثمان يوضع في وضع متكوّر بدرجات مختلفة من الإنكماش، بدءًا من الوضع المرتخي أو نصف المنكمش إلى الوضع المنكمش تمامًا الذي يكون كوضع الجنين (الشكل ٣٠). وكان هذا الشكل شائعًا على نطاق واسع في شمال غربي افريقيا وفي جنوبي الصحراء منذ عصور ما قبل التاريخ. وقد عُثر على لحد يرجع إلى العصر الحجري الحديث في كهف تمّ استكشافه في وادي الجيتارا في منطقة وهران (الجزائر) (الشكل ٣١) (كامبس، ١٩٧٤، ص ٢٥٤). ووضع الجثمان ودرجة تكوّره في هذا اللحد، مماثلان تمامًا للطريقة المتبعة في مدافن الجارامنت.

إن معنى الوضع المتكوّر أو الجنيني في تقاليد الجارامنت ليس مفهومًا بوضوح، إذ لم تتبق أية



الشكل ٣٠ : هيكل عظمي في وضع القرفصاء من جبانة جات (نقلاً عن سيرجي).

مصادر يمكن تفسيره في ضوئها. ولا نملك هنا سوى الإفتراض بأنه إذا كان الجارامنت يؤمنون بوجود حياة أخرى بعد الموت، ويشاركون ثقافات أخرى سابقة عليهم معتقداتها في هذا الشأن، فإن دفن الجثمان في وضع مماثل لوضع الجنين ربّما كان يعني انتظار الميت لميلاد جديد في حياة أخرى.

وكانت رؤوس بعض الهياكل العظمية ترتكز إلى مسند رأس خشبي (الشكل ٣٢). وهي عادة ترتبط فيما يبدو بتقليد استمرّ طويلاً في العالم القديم. ومع ذلك فإن النمط الوحيد المناظر لمسند الرأس الذي عُثر عليه في وادي الآجال هو ذلك النمط الذي استخدمه قدماء المصريين على نطاق واسع. فقد كان لشكل مسند الرأس الذي استخدمه الفراعنة معنىً رمزيّ وجماليّ قوي، حسبما يُلاحظ من مختلف أنواع مساند الرأس. وكان مسند الرأس المصري يُصنع أصلاً من الخشب، وعادة ما يتّخذ شكل وسادة مقوّسة ترتكز إلى دعامة عمودية أو صلبة وكانت توضع عادة تحت رأس الميت المسجى في التابوت الحجري.

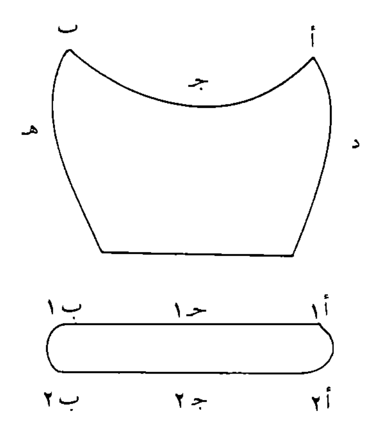
وقد عُثر على عدد من مساند الرأس ضمن كنوز توت عنخ آمون، وكان أحدها مصنوعًا من الزجاج الأزرق الفيروزي الموشّى بالذهب. ويُقال إن شكل مسند الرأس يرمز إلى أسطورة مصوّرة تصويرًا جيدًا في مسند رأس عاجي آخر. فهي تصوّر إله الأرض وإلهة السماء يفصل بينهما أبوهما



الشكل ٣١: مقبرة
من وادي الجبتارا
تنتمي الى العصر الحجري الحديث
(نقلاً عن كامبس، ١٩٧٤،
ص ٢٥٤).

شو، إله الجو، الذي يتوسّط الأرض والسماء ويرفع السماء مع جميع الآلهة الذين سبقوه في الوجود. ويصوّر أسدان شروق الإله رع إله الشمس وغروبه (الشكل ٣٣). ويمكن للميت عندئذ أن ينزل رأسه ويستريح في السماء.

ويمكن أن يُطرح هنا سؤال عمّا إذا كان ذلك يدلّ على أن الجارامنت كانوا يعتنقون نفس معتقدات المصريين أم أن وجود مساند الرأس في وادي الآجال لا يعدو أن يكون مجرّد مصادفة. فإذا أخذنا عناصر أخرى في الإعتبار وجدنا أنه في وادي الآجال، الذي يمكن بسهولة العثور على نظيره في مصر، لا يشكّل مسند الرأس بأي حال من الأحوال مثالاً منفردًا للتأثير المصري في منطقة الجارامنت.



الشكل ٣٢ : مسند رأس من زنشيكرا ٢٠٩ (نقلاً عن دانييلز).



الشكل ٣٣ : مسند رأس من كنوز توت عنخ آمون.

ولمّا كان من المفترض أن الميت يحيا حياة أخرى في قبره ، الذي كان يُعتبر دار الخلود ، فقد تمّ توفير كل شيء لمساعدته على أن ينعم بالحياة الآخرة. وهكذا كانت توضع حول الجثمان أشياء تُستخدم في الحياة اليومية ، كالأواني وغيرها من الأدوات ، وهي عادات كانت تُمارس في معظم الثقافات المعاصرة حينذاك. وعادة ما تبيّن المواد التي تمّ العثور عليها مركز الميت ودرجة ثرائه ، وكانت المقابر تحتوي عادةً على عدّة أدوات الزينة من المؤكّد أنها كانت تُستخدم في بعض الأغراض الطقسية ، وتعاويذ ربّما كانت توضع لحماية الميت وطرد الأرواح الشريرة. وكانت هذه الأدوات تتألّف من سلع تُجلب من منطقة واسعة في حوض البحر المتوسط : قرطاجة وجنوبي بلاد الغال وإيطاليا ومصر.

والواقع أن فزان ، موطن الجارامنت ، كانت ذات موقع فريد من الناحية الجغرافية. فقد كان سكانها القدامى يتحكّمون في جميع الطرق التي كانت تسلكها القوافل قاصدة أرض سكان الكهوف السود في الصحراء. وقبل العهد الروماني كانت المنطقة الافريقية الواقعة غرب سرت ، خاضعة بكاملها لسيطرة القرطاجيين ، ومن الواضح أن القرطاجيين كانوا حريصين على الإتصال بشعوب الداخل. وتوضح قصة بناء هياكل الفيلاني قبيل منتصف القرن الرابع قبل الميلاد ، عند الحدود الغربية للمنطقة الخاضعة لسيطرة اليونان ، كيف حال القرطاجيون بصورة فعّالة دون أن يستخدم اليونانيون الطرق الجارامنتية المؤدّية إلى فزان.

وكان الجارامنت يتمتّعون بوضع هام باعتبارهم وسطاء في أي تجارة ، سواء تجارة العقيق الأحمر أو الذهب ، وربّما تجارة العاج أيضًا. كما كانوا يسكنون في منطقة ذات أودية خصبة ممّا جعلهم ينعمون بالرخاء والثروة.

وشأن معظم مدافن البربر فإن المدافن الأسطوانية والرباعية الأضلاع الموجودة في الوادي تتّسم بالبساطة ، وربّما كانت تمثّل نماذج مبسطة لعمائر دفن أكثر إتقانًا في الجزائر والغرب. ويمكن اعتبار الشكل المدرَّج (الأسطواني والرباعي الأضلاع) محاكاة أمينة للمقابر المصرية. فالواقع أن الأمثلة الموجودة في صينية بن هويدي وتجليت تعدّ أشكالاً مبسطة للمصطبة المصرية.

أما بالنسبة للمقابر الهرمية في وادي الآجال فإن هناك مصدرًا واحدًا فقط هو الحضارة المروية في النوبة. فعمائر الدفن في كلا الموقعين لها نفس الشكل ، كما تفصل بين الحضارتين فترة زمنية قصيرة نسبيًا. وكثيرًا ما يُشار إلى علاقات قامت بين سكان وادي الآجال وسكان النوبة ، سواء في وقت الحرب أم في وقت السلم. ومن بين ما تضمّنته مقابر المرويين الأوائل رسومًا لأسرى ليبيين منقوشة على أحجار (دونهام ، ١٩٥٥ ، ص٦٩). والواقع أن بعض المؤلّفين يرون أن المنطقة التي سيطر عليها الجارامنت ربّما تكون قد امتدّت حتى إلى النيل. ويرى البعض أن الجنوب الغربي ، أي المنطقة الواقعة شمال دارفور ووداي (شمال غربي السودان) كانت أرضًا جارامنتية. ولم يتأكّد لنا هذا الزعم

حتى الآن ، ولكن الأهم من ذلك في هذا السياق هو الشكل المشترك للمقابر في كلتا المنطقتين وانتماؤهما إلى فترة زمنية واحدة.

وحين نتطرّق إلى شواهد قبور الجارامنت وموائد تقديم القرابين تغدو الصورة أقل وضوحًا. وليس من المتعذّر أن نجد خارج أراضي الجارامنت مناظر لكل نوع من أنواع شواهد المقابر وإن كان من الصعب أن نربط بينها. ولدى دراسة موائد تقديم القرابين نخلص إلى أنه كان ثمة تأثير مصري ومروي قوي على الموائد الليبية. إلاّ أننا حين نتحدّث عن شواهد المقابر نكون أميل إلى ربط مقابر وادي الآجال بالطرز البونية منا إلى ربطها بالطرز المصرية أو المروية. والواقع أننا لا نصادف في مدافن مصر أو مروى الشواهد التي تتّخذ شكل الكف أو القرن. فكيف لنا أن نفسّر المزج بين الشاهد الذي يتّخذ شكل الكف (والذي يفترض فيه أنه يصوّر رمزًا لبعض الآلهة) وبين المائدة التي أوضحنا أنها تحمل تأثيرًا مصريًا أو مرويًا؟ ويمكننا طرح نفس السؤال بشأن الشاهد الذي يتّخذ شكل القرن وارتباطه بموائد تقديم القرابين. فلم يحدث حتى الآن أن صادفنا هذا المزج في أي مكان آخر غير وادي الآجال. وإنني أميل إلى الإعتقاد بأن الجارامنت كانوا يتأثّرون بالثقافات المجاورة التي كانوا على اتصال بها. ويُحتمل أيضًا أن يكونوا قد عبدوا آلهة مشابهة لآلهة جيرانهم ومارسوا طقوسًا مماثلة لطقوسهم. وعلى الرغم من تصوير هذه الآلهة كرموز ، فإن الجمع بين الشواهد وموائد تقديم القرابين ليشكّل ظاهرة جارامنتية بحتة. ومن هنا فإنني أميل إلى الاعتقاد بأن هذه الاختلافات ترجع إلى بعد الجارامنت وعزلتهم ، وذلك على الرغم من وجود شواهد عديدة تثبت قيام علاقات بين الجارامنت وجيرانهم.

وبصدد الحديث عن موضوع العزلة ، يوحي الإستخدام المؤكّد لطرق خاصة من طرق الدفن من جانب بعض مجموعات الجارامنت على الأقل، بأن التأثير الخارجي لم يكن قادرًا دائمًا على إحداث تغيّر. فالدفن في وضع القرفصاء يمثّل الطريقة الوحيدة التي اتّبعها الجارامنت حتى القرون الوسطى وربّما بعدها. ولكن على الرغم من كل العناصر الهامة والتأثير الخارجي الواضح في أشياء كالكفوف والموائد ، فإن هناك جانبًا من ثقافة الجارامنت ، كاستمرار عادة الدفن في وضع القرفصاء ، يؤكّد بوضوح محافظتهم على عادات محلية خاصة بهم.

تنويه

يودّ المؤلّف أن يعرب عن امتنانه للسيد س. م. دانييلز C.M.Daniels، من جامعة نيوكاسل بالمملكة المتحدة، الذي تكرّم بالسماح له بالإطّلاع على مجموعة الصور والخرائط الموجودة لديه، كما تفضّل بالترخيص له بأن يتناول، في هذا البحث، المواد المتّصلة بتلك الوثائق، قبل نشر الدراسة حول مواقع وادي الآجال.

المراجع

AYOUB, M. S. 1961. *Excavation at Germa, the Capital of the Garamantes.* Tripoli.
—. 1967. *Excavation in Germa between 1962 and 1966.* Tripoli.
—. 1968a. *The Expedition of Cornelius Balbus 19 B.C.* Tripoli.
—. 1968b. *Fezzan: A Short History.* Tripoli.
—. 1968c. *The rise of Germa.* Tripoli.
AYOUB, M. S. 1968d. *The Cemetery of Saniat Ben-Howedy.* Tripoli.
BISI. A. M. 1968. Punic Stelae. *Arehaeologia Viva* (Paris), pp. 109-24.
BOETHIUS, A.; WARD-PERKINS, J. B. 1970. *Etruscan and Roman Architecture.* Harmondsworth, Penguin Books.
BRECCIA, E. 1912. *Le Nicropoli di Sciatbi.* Vol. I. Cairo, Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale.
BROGAN, O. 1955. The Magnificent Tombs which the 'Home Guards' of Roman Tripolitania Built. *London Illustrated News,* 29 January, pp. 182-5
—. 1968. First and Second Century Settlement in the Tripolitanian Pre-desert. *Libya in History,* Historical Conference, Benghazi, pp. 121-8
CAMPS, G. 1956. La céramique des sépultures berbères de Tiddis. *Libyca,* Vol. IV, pp. 155-203.
—. 1958/59. Données nouvelles sur les tombeaux du Djebel Mistiri d'après une note de M. Latapie. *Libyca,* Vols. VI-VII, pp. 229-42
—. 1959. Sur trois types peu connus de monuments funéraires Nord-Africains. B.S.P.F., Vol. LVI, pp. 101-8
—. 1961. *Aux origines de la Berbérie: monuments et rites funéraires protohistoriques.* Paris, Arts et Métiers Graphiques.
—. 1965. Les Dolmens Marocains. *Libyca,* Vol. XIII, pp. 235-47
—. 1973. Nouvelle observation sur l'architecture et l'âge de Madracon Mausoleo de Numidie. *Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, compte rendu des séances (C.R.A.I.),* pp. 470-517
—. 1974. *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara.* Paris.
—. 1974. Le gour, mausolée berbère du VII^e siècle. *Antiquités africaines,* Vol. 8, pp. 191-208.
CAPUTO, G., et al. 1937. *Il Sahara Italiana.* Part I: *Fezzān e Oasi di Gat,* pp. 243-330 Rome, Real Società Geografica Italiana.
—. 1951. Scavi Sahariani. *Monumenti antichi,* Vol. XLI, pp. 150-522
DANIELS, C.M. 1968. The Garamantes of Fezzān. *Libya in History,* op. cit., p. 267, Fig. 11, Pl. IX.

—. 1970. *The Garamantes of Southern Libya.* Cambridge, Oleander Press.
—. 1972/73. The Garamantes of Fezzān, An Interim Report of Research (1965-73). *The Fourth Annual Report of the Society for Libyan Studies,* London.
Di Vita, A. 1968. Influence grecque et tradition orientale dans l'art punique de Tripolitaine. *Mélanges d'archéologie et d'histoire* (Paris), Vol. LXXX, pp. 7-80.
Dunham, D. 1955. *The Royal Cemeteries of Kush.* Vol. II: *Nuri.* Boston, Mass., Museum of Fine Arts.
—. 1957. *The Royal Cemeteries of Kush.* Vol. IV: *Royal Tombs of Meroe and Barkal.* Boston, Mass., Museum of Fine Arts.
Kirwan, L. P. 1934. Christianity and the Kura'an. *The Journal of Egyptian Archaeology,* Vol. XX, pp. 202 f.
Pauphilet, D. 1953. *Mission au Fezzān (1949).* Publications Scientifiques de l'Institut des Hautes Études de Tunis.
Risner, G. A. 1923, The Meroitic Kindgom of Ethiopa. *Journal of Egyptian Archaeology,* Vol. 9.
Sergi, S. 1934. The Garamantes of Libya. *Congrès International de Sciences Anthropologiques et Ethnologiques. Compte rendu de la première session.* London.
—. 1936a. Les caractères physiques des Garamantes de la Libye. *XVI^e Congrès International d'Anthropologie et d'Archéologie préhistorique, VI^e Assemblée Générale de l'Institut International d'Anthropologie à Bruxelles, 1935,* Brussels, Imprimerie Médicale et Scientifique.
—. 1936b. La reliquie dei Garamanti. *Bolletino della Società Geographica Italiana.*
—. 1938. I Garamanti della Libya. Risultati di una missione anthropologica nel Fezzān, *Atti IV Congresso Nazionale di Studi Romani.*
Shinnie, P. 1967. *Meroe.* London, Thames & Hudson.
Vandier, J. 1951-54. *Manuel d'archéologie égyptienne,* Vol. I, 1951; Vol. II, 1954. Paris, A. & J. Picard.
Vuillemot, M.G. 1964. Fouille du Mausolée de Beni Rhenane en Oranie. *Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, compte rendu des séances*, pp. 71-95
Winorath-Scott, A.; Fabri, M. 1966/67. The Horn in Libyan Prehistoric Art and its Traces in Other Cultures. *Libya Antiqua*, Vols. III-IV.